

نكبة فلسطين عام 1948

د. عبد الله عبد الدائم

دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى تشرين الثاني (نوفمبر) 1998

تقييم عام "لحرب" عام 1948

لم تتكشف وقائع "حرب" عام 1948 وقضاياها للرأي العام العربي بصورة واضحة وكاملة إلا على مراحل... صحيح أن الجمهور العربي أدرك منذ البداية، بحدسه وحسه السياسي الفطري، ما كان في تلك المعركة من تأمر القوى الاستعمارية و تضافرها، وما كان من تضامنها مع الصهيونية العالمية. وصحيح أنه أدرك بفطرته السليمة و تجربته الماضية ومتابعه للأحداث ما صاحب تلك الحرب من تخاذل في الصف العربي ومن عجز في تصرفاته ومن ضعف أو تأمر في مواقف حكامه. غير أن البيانات الموضوعية لم تتضح له إلا بعد أن أخذ يطل على أحداث الحرب الحقيقية من خلال الوثائق والمذكرات والدراسات المتصلة بها. يضاف إلى هذا أن كثيراً من حقائق تلك الحرب و دخائلها قد طمسها خلال فترة من الزمن الأنظمة السياسية العربية المسؤولة عن النكبة وحاولت تشويهها وتزييفها. وقد تضامن مع هذا التزييف وأيده ما قذفت به الدعايات الاستعمارية والصهيونية من صور مشوهة مغرضة حول أحداث تلك "الحرب" ومحركاتها.

ولا نستطيع أن نزعم اليوم أن كل شيء قد اتضح في ما يتصل بخفايا "الحرب" وأسرارها. فلا يزال ثمة مجال واسع لمزيد من التقصي والدراسة، ولا بد أن تكشف مثل هذه الدراسة عن جوانب لا تزال ومع ذلك فقد ظهرت منذ التاريخ حتى اليوم طائفة من الوثائق والدراسات التي تمكننا من الوصول إلى تقييم قريب من الحقيقة. وما نجده بين تلك الوثائق والدراسات من تلاق و اتفاق – وإن كان بعضه يرجع إلى نقلها عن مصادر واحدة- يسمح لنا بأن نصل إلى قدر كبير من الثقة.

وليس الهدف أن نعيد رواية أحداث "الحرب" وتمحيصها والتدقيق فيها، بل مهمتنا تقتصر على أن نكشف عن العوامل التي أدت إلى هزيمة العرب عام 1948.

ولعل خير أسلوب ننتهجه أن نرد وقائع "الحرب" وبواعثها ونتائجها إلى العناصر الأساسية المكونة لها، وأن نرى دور كل عنصر من هذه العناصر فيما بينها. ومثل هذا الأسلوب يقترب من المنهج الحديث الذي يعرف باسم "منهج تحليل النظم"، وهو منهج ساد في شتى ميادين الدراسة اليوم.

و إذا نحن أجرين مثل هذا التحليل، وجدنا أن العناصر المقومة لتلك الأحداث، تترد في النهاية إلى العناصر الخمسة التالية:

1. بريطانيا ودورها الرئيسي في "الحرب".
2. الولايات المتحدة ودورها المتكامل مع دور بريطانيا.
3. الصهيونية العالمية وقواها في فلسطين وخارجها.
4. هيئة الأمم و مجلس الأمن كعامل مستقل حيناً، وكعامل متكامل مع دور بريطانيا والولايات المتحدة والصهيونية في معظم الأحيان.
5. العرب و مسؤوليتهم الذاتية.

وبديهي أن هذه العناصر الخمسة عناصر متآخدة متكاملة، وأن الفصل ما بينها فصل مصطنع إلى حد بعيد: فدور بريطانيا لا ينفصل في الواقع عن دور الولايات المتحدة، لا سيما بعد أن دخلت هذه الأخيرة طرفاً أساسياً في قضية فلسطين، وبعد أن سلمت لها بريطانيا بهذا الدور بل تخلت لها عنه إلى حد كبير (في إطار التنافس بين السياستين في الشرق الأوسط من جهة، وفي إطار لاتفاق حول الأهداف النهائية بينهما في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية من جهة ثانية). ودور بريطانيا والولايات المتحدة- وهو دور متكامل إلى حد بعيد- لا ينفصل أيضاً عن دور الصهيونية العالمية وأثرها في توجيه سياسة كل من الدولتين. وهيئة الأمم نفسها كانت موجهة في هذا المجال بأهداف السياسة البريطانية والأمريكية، ولم تستطع الخروج عليها إلا في الظاهر. وحتى دور العرب أنفسهم نجده في أعماقه محكوماً إلى حد كبير بالتأثير المباشر وغير المباشر للسياسة البريطانية والأمريكية، سواء عن طريق بعض الحكومات العربية المنخرطة في تلك السياسة، أو عن طريق فرض تلك السياسة على الحكومات العربية بالإكراه حيناً و بالخداع أحياناً، أو عن طريق الصهيونية نفسها والتستر وراءها والتآمر الخفي معها في سبيل بلوغ الغايات الأصلية لكلتا الدولتين.

على أن هذا التفاعل و التكامل بين العناصر المؤثرة في المعركة، وهذه الصلة الدائرية القائمة بينها، لا يحولان دون التريث عند كل عنصر من العناصر على حدة، من أجل جلاء دوره الخاص وشكل إسهامه في "الحرب" ونتائجها.

ولعلنا إذا أردنا أن نرد هذه العناصر جميعها إلى العنصر الأم، إلى "عنصر العناصر" أن صح التعبير، ألّفينا ذلك العنصر متجسداً في ذلك الحلف الاستعماري- الصهيوني، المكون من بريطانيا والولايات المتحدة والصهيونية، وفي قلب هذا العنصر تحتل بريطانيا دون شك الدور الرائد.

فلنمض إذن إلى تحليل أثر كل عنصر من هذه العناصر على حدة، غير ناسين التفاعل فيما بينها، مدركين أنها في النهاية عنصر واحد متكامل جوهره الاستعمار والصهيونية، وقلبه ومحركه الاستعمار البريطاني، ورأس الحربة فيه الإمبريالية الأمريكية.

أولاً- دور الاستعمار البريطاني

ترجع أهمية هذا الدور بطبيعة الحال إلى أن بريطانيا كانت هي الدولة المنتدبة على فلسطين. ومن هنا كان دورها أساسياً منذ البداية في ولادة المشكلة الفلسطينية وفي تفاقمها وفي ما انتهت إليه بعد "حرب" عام 1948.

وليس قصدنا هنا أن نسرد قصة بريطانيا مع المسألة الفلسطينية و المراحل التي مرت بها سياستها الرامية إلى تهويد فلسطين وإلى خلق كيان إسرائيل في النهاية. فهذه قصة معروفة ، ولا حاجة بنا إلى أن نعود إلى جذور تلك القصة، بدءاً من وعد بلفور عام 1917 بل قبله بل حسبنا أن نتوقف عند دور بريطانيا في أحداث 1948 وما سبقها مباشرة ومهد لها.

والحق، إن التغيير الأساسي الذي طرأ على السياسة البريطانية تجاه فلسطين، والذي أدى إلى "حرب" عام 1948، قد بدأ عملياً منذ الحرب العالمية الثانية، حين استطاعت الصهيونية أن تنتزع- بتأثير العون الذي قدمته إلى بريطانيا وحلفائها أثناء الحرب¹- وعوداً جديدة برز فيها الاعتراف بسيادة اليهود على جزء من فلسطين على الأقل. ففي ربيع عام 1943 كتب تشرشل إلى حاييم وايزمن مؤكداً أن حكومة صاحب الجلالة قررت الاعتراف بسيادة اليهود على جزء من فلسطين (مما يعني العودة إلى مشروع التقسيم والتتكر للكتاب الأبيض الذي أعلنت بريطانيا من قبل تمسكها به مهما كلف الأمر). وفي نيسان (إبريل) من عام 1944، قررت اللجنة التنفيذية لحزب العمال البريطاني العمل على تكبير رقعة البلاد الفلسطينية التي ستمنح لليهود بحيث تستوعب أكبر عدد ممكن منهم.

على أن الترجمة العملية لهذا الموقف البريطاني لم تتخذ شكلها إلا بعد أن خطت بريطانيا خطوات عملية حاسمة أدت في النهاية إلى "حرب" عام 1948 ونتائجها، ونعني بها : أولاً إعلانها الجلاء عن فلسطين في آب (أغسطس) 1948، وانسحابها الفعلي منها قبل هذا التاريخ (15 أيار/مايو 1948) دون أن تقدم أي حل لمشكلاتها، وتسهيلها بذلك مهمة استيلاء اليهود على أكبر جزء ممكن من فلسطين، وثانياً تخليها عن مسؤولياتها للأمم المتحدة وتسخيرها هذه الأخيرة- بالتآزر مع الولايات المتحدة- لتحقيق أهدافها وعودها للصهيونية العالمية، والتستر وراءها في سبيل الوصول إلى أغراضها المرسومة، وثالثاً إعلانها رسمياً إدخال الولايات المتحدة طرفاً في القضية وفي أي حل لها، كما عبر عن ذلك البيان الذي أدلى به المستر بيفن، وزير الخارجية البريطانية، أمام مجلس العموم بتاريخ 13 تشرين الثاني (نوفمبر) 1945. وبذلك وضعت القضية الفلسطينية نهائياً في يد الخلف الاستعماري البريطاني الأمريكي الصهيوني.

وبعد هذا التخير الأساسي في موقف بريطانيا وهذه الخطوات العملية التي خطتها، سارت في طريق تنفيذ خطتها سيراً متدرجاً، واصطنعت لذلك مختلف الوسائل والسبل، بما فيها الاستعانة بحلفائها من العرب أنفسهم للوصول إلى الغاية المنشودة.

¹بلغ عدد اليهود الذين أدخلتهم بريطانيا في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية حوالي 30 ألف شخص.

أما الغاية المنشودة هذه فتدل الأحداث على أنها كانت في الواقع إنشاء دولة إسرائيل وتسليمها أكبر جزء ممكن من الأرض الفلسطينية، وإلحاق ما تبقى من هذه الأرض بالمملكة الأردنية الهاشمية.

إن تحليل الأحداث قبل "حرب" عام 1948 وأثناءها وبعدها، أوصلنا إلى تقرير هذه الحقيقة السابقة، وهي أن الغاية التي استهدفتها بريطانيا، منذ عام 1943 على أقل تقدير، كانت أن تحقق عملياً وعد بلفور وأن تنشئ الكيان القومي الصهيوني، بل أن تتجاوز حدود هذا الوعد نفسه فتغفل الشعب الفلسطيني وتساعد الصهيونية على طرده من بلاده، وتدمج البقية الباقية منه في الكيان الأردني.

وفيما يلي تحليل سريع لأهم الأحداث التي تشهد على موقف بريطانيا هذا:

1. جلاء بريطانيا عن فلسطين :

أ) في أوائل نيسان (إبريل) 1947 أرسلت بريطانيا مذكرة إلى الأمين العام للأمم المتحدة تعلن فيها تخليها عن الانتداب في فلسطين وتطلب منع عرض القضية الفلسطينية في دورة خاصة. وقد فعلت ذلك رغبة منها في تحويل القضية إلى هيئة الأمم المتحدة، من أجل تيسير قرار التقسيم الذي رفضه العرب آنذاك. ويؤكد ذلك أن المندوب البريطاني أعلن عزم حكومته على الجلاء فوراً عن فلسطين في الجلسة التي عقدتها الأمم المتحدة في 23 أيلول (سبتمبر) 1947 لدراسة تقرير "اللجنة الدولية للتحقيق" الذي أوصى في ما أوصى بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية. وكان واضحاً إذن أن الإعلان البريطاني في هذه الجلسة بالذات كان يستهدف استعجال الأمم المتحدة في إقرار التقسيم وإعلان الدولة اليهودية، بحجة خطر الفراغ الإداري والعسكري على الأمن والاستقرار، في الفترة ما بين انتهاء الانتداب وإقرار الحل للقضية.

ب) ولم تكتف بريطانيا بذلك بل أعلنت فعلاً انتهاء الانتداب في 15 آذار (مارس) 1948، وأعلنت انتهاء الجلاء في آب (أغسطس) 1948، وأكدت أنها سوف لا تمارس أية سلطة إدارية أو عسكرية خلال الفترة الواقعة بين هذين التاريخين أو بعدها إلا إذا اتفق الطرفان المتنازعان (يقيناً منها أن تحقيق هذا الشرط أصبح مستحيلاً).

ج) وقد أدى ذلك فعلاً - كما نعلم - إلى صدور قرار التقسيم عن هيئة الأمم المتحدة في 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947، وأعقبه رفض عربي له ونضال عربي ضده، صحبته مجازر بشرية عمت أنحاء البلاد. ومع ذلك أصرت بريطانيا على تنفيذ قرار الانسحاب النهائي، بل جعلت موعده يوم 15 أيار (مايو) 1948. وقد فعلت ذلك على الرغم من نداء مجلس الأمن إليها في 17 نيسان (إبريل) بالبقاء في فلسطين كدولة منتدبة تحت إشراف مجلس الأمم المتحدة إلى حين التوصل إلى حل جديد للمشكلة. وهكذا تركت البلاد نهباً للفوضى والاضطراب.

د) بل إنها أخذت تخلي معسكراتها وتحصيناتها وأسلحتها لليهود وتستعدي العرب عليهم وتستعديهم على العرب، أملاً منها في تيسير المهمة أمام اليهود.

هـ) وعندما بدأت تسحب قواتها من فلسطين فعلاً، بدأت بالجلاء عن المناطق اليهودية أولاً وأخذت تسلم سلطات هذه المناطق للوكالة اليهودية، وشرعت في تسليمها المعسكرات والتحصينات والمطارات

ومستودعات الذخيرة. وهكذا ساعدت اليهود على خلق جهاز إداري عسكري قبل ستة أشهر على الأقل من انسحابها النهائي. في حين أنها لم تنسحب من المناطق العربية حتى آخر أيام الموعد المحدد، وظلت تمارس صلاحياتها كاملة ضد الشعب العربي الفلسطيني وضد استعداداته العسكرية للدفاع عن نفسه أمام هجمات اليهود. وقاومت إدخال الأسلحة إلى المناطق العربية ودخول المتطوعين الشعبين من البلدان العربية إلى فلسطين.

(و) قبل 15 أيار (مايو) 1948، الوعد المحدد للجلاء، سلمت بريطانيا اليهود استحكامات "خط إيدن" الذي أقامه الإنكليز زمن الحرب العالمية الثانية ضد الغزو الألماني، على الحدود الشمالية الشرقية من فلسطين.

(ز) سكتت بريطانيا عن جرائم اليهود الوحشية خلال الفترة التي سبقت الجلاء، وعن الاعتداءات المتكررة التي قاموا بها في المناطق والأحياء العربية، وعن جو الإرهاب الذي خلقوه ضد السكان العرب. وقد ارتكبت مجزرة دير ياسين الشهيرة تحت سمعها وبصرها، ثم مجزرة قرية ناصر الدين القريبة من طبريا، وسواهما من المجازر والأعمال الوحشية التي أدت إلى تهجير عشرات الألوف من المواطنين العرب من حيف ويافا والقدس والقرى المحيطة بها والواقعة ضمن المناطق اليهودية².

وهكذا لم يأت 15 أيار/مايو موعد نهاية الانتداب، حتى دخلت تحت سيطرة اليهود معظم المساحة المخصصة في التقسيم لليهود ومساحة كبيرة أخرى مما هو مخصص للعرب في قرر التقسيم، مثل يافا وجزء كبير من الجليل الغربي وجزء كبير من قرى اللد والرملة. ومن هنا نرى كيف يسر الإنكليز - عن طريق لعبة الجلاء - قيام الدولة اليهودية قبل مغادرتهم فلسطين، وكيف بروا بعودهم لليهود فمكنوهم من السيطرة على أكبر جزء ممكن من البلاد. وبفضل هذا العون استطاع اليهود أن يسارعوا في الدقيقة الأولى بعد انتهاء الانتداب رسمياً إلى إعلان قيام دولتهم، لأنها كانت قائمة فلا نتيجة للخطة المخادعة التي رسمها الإنكليز.

2- موافقة بريطانيا على إعلان العرب الحرب وشروطها :

قررت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية 12 نيسان (إبريل) 1948 تدخل الجيوش العربية لإنقاذ فلسطين، وحددت يوم 15 أيار (مايو) 1948 موعداً لتحرك تلك الجيوش. وقد فعلت ذلك تحت ضغط الواقع الأليم الذي صارت إليه فلسطين قبل جلاء الإنكليز - كما رأينا - وتحت ضغط المظاهرات الشعبية الصاخبة في البلدان العربية جميعها.

وتثبت الوثائق³ أن بريطانيا لم تعارض في اتخاذ هذا القرار بل أيدته، ولكنها اشترطت لإنفاذه شرطاً واحداً يفقده كل معناه، وهو ألا تغزو الجيوش العربية الأراضي التي هي من نصيب اليهود بحسب مشروع التقسيم.

² سنرى فيما بعد دور هذا الإرهاب الذي قام به اليهود في كثير من المدن العربية والذي سكتت عنه بريطانيا أو شجعت عليه.

³ يمكن الرجوع خاصة إلى كتاب غلوب باشا: جندى مع العرب، ترجمة عفيفي حسني الصمدي، بيروت دار العلم للملايين، وإلى مذكرات عبد الله التل، قائد معركة القدس.

يبرز هذا واضحاً في الاتفاق الذي بين المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية وتوفيق أبو الهوى رئيس الوزارة الأردنية، في ربيع 1948 (وقد روى تفاصيل ذلك الاتفاق الجنرال غلوب في كتابه **جندي مع العرب**).

ويبدو ذلك واضحاً كذلك من مجرى "الحرب" العربية - الإسرائيلية ومن سلوك الجيوش العربية خلالها، قبل الهدنة الأولى وبعدها. وسوف نرى- خلال حديثنا عن العرب ومسؤوليتهم- كيف أحجمت هذه الجيوش العربية عن التقدم حيث كانت تستطيع التقدم، وفاءً منها بالعهد الذي قام بين الدول العربية وبين بريطانيا خاصة، والذي يقضي بعدم التوغل في غير الأراضي المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم.

ولا حاجة إلى أن نذكر أن بريطانيا كانت في واقع الأمر توجه أحداث "الحرب"، بعد أن أصدرت الجامعة العربية- بتأثيرها وضغطها- قراراً باختيار القائد الأعلى للجيش الأردني رئيساً لهيئة القيادة العامة للجيوش العربية. ومعنى هذا القرار أن يتولى الجنرال غلوب البريطاني، قيادة الجيوش العربية وتوجيه المعركة.

وهكذا يبدو واضحاً أن بريطانيا رسمت للقوات العربية حدود عملها، وقصرت مهمتها على الدفاع عن القسم العربي - وفق قرار التقسيم - والمحافظة على الأمن فيه. بل إنها لم تضمن لها في النهاية هذا الهدف المتواضع، حين توسع اليهود في القسم المخصص للعرب وتجاوزوا قرار التقسيم. ويكفي أن نذكر أن رقعة إسرائيل بعد انتهاء الحرب وبعد اتفاقات الهدنة زادت زيادة كبيرة عما أقره قرار التقسيم، فبلغت 20,850,000 دونم أي ما يقرب من 80% من مساحة فلسطين، بدلاً من 14,500,000 دونم خصصها لها قرار التقسيم وتمثل 56% من مساحة فلسطين الكلية. وهكذا ندرك مرة أخرى كيف وفّت بريطانيا بتعهداتها لليهود، وحققت لهم " تكبير رقعة البلاد الفلسطينية التي ستمنح لهم" كما ورد في قرار اللجنة التنفيذية لحزب العمال البريطاني في نيسان/ إبريل عام 1944، وقد سبقت الإشارة إليه.

3- تعاون بريطانيا مع الولايات المتحدة :

ولم تصل بريطانيا إلى أهدافها عن طريق إعلانها الجلاء عن فلسطين على نحو ما ذكرنا فحسب، ولا عن طريق إيكالها الأمر لهيئة الأمم المتحدة فقط ، بل حققت ذلك خاصة حين أدخلت الولايات المتحدة طرفاً في القضية وتخلت لها شيئاً بعد شيء عن دور الريادة والقيادة. وقد تم ذلك - كما نعلم- في إطار السباق الأنجلو-أمريكي على إرضاء الصهيونية وكسب ودها. وزاد في خطره انه جرى في فترة انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام 1944 وفي جو التنافس بين المرشحين روزفلت وديوي على تأييد الصهيونية وأطماعها. وقد سبق أن أشرنا إلى بيان المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم بتاريخ 13 تشرين الثاني(نوفمبر) 1945، وما ورد فيه من إعلان رسمي عن "إدخال الولايات المتحدة طرفاً في القضية وفي أي حل لها". ومما جاء في البيان⁴ " قرّر رأي حكومة جلالتة أن تدعو الولايات المتحدة للتعاون معها في تأليف لجنة تحقيق إنكليزية- أمريكية مشتركة لبحث مسألة يهود أوروبا والقيام باستعراض آخر لمشكلة فلسطين. ويسرّني أن أعلن للمجلس أن حكومة الولايات المتحدة قد لبّت هذه الدعوة".

⁴ نص البيان مثبت في كتاب الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين (ص 351-358) المجموعة الأولى.

ويضيف البيان : "وبعد أن تقدم لجنة التحقيق توصياتها، تتداول بريطانيا مع العرب واليهود والولايات المتحدة لاتخاذ التدابير المؤقتة، ثم تُعدّ مشروع الحلّ الدائم وتعرضه على الأمم المتحدة للموافقة عليه".

وقد تألفت بالفعل اللجنة الأنجلو أمريكية في 10 كانون الأول(ديسمبر) 1945، وكان نصفها من الإنكليز ونصفها من الأمريكيين، ومعظمهم من غلاة المؤيدين للصهيونية. وقد كان هدف اللجنة الأساسي – كما نعلم – إلغاء الكتاب الأبيض رسمياً ونهائياً: ومن ثم فتح أبواب فلسطين على مصراعيها للهجرة، لتأمين أغلبية يهودية فيها قبل الإقدام على اتخاذ الخطوة النهائية بإعلان دولة إسرائيل. وقد برزت هذه الأهداف جميعها في تقرير اللجنة الذي تم وضعه في 20 نيسان(إبريل) 1946.

وقد كان من أبرز نتائج هذا التعاون البريطاني مع الولايات المتحدة، ذلك التصريح الثلاثي الشهير الذي طلعت به الدولتان(ومعهما فرنسا هذه المرة)، بتاريخ 25 أيار(مايو) 1950، بعد عام واحد من اتفاقيات الهدنة في رودس. وفي هذا التصريح تثبيت لكيان إسرائيل وحماية له، وتأكيد على رغبة الدول الثلاث في التعاون على إعادة السلام والاستقرار إلى المنطقة (بعد أن وصلت إسرائيل إلى أهدافها، وبعد أن طرد العرب من ديارهم)!

كذلك كان من أبرز نتائج هذا الحلف البريطاني -الأمريكي الوصول إلى اتفاقيات رودس بين الدول العربية وإسرائيل. ونعلم كيف كرّست هذه الاتفاقيات حدود إسرائيل التي وصلت إليها عند الهدنة الثانية (في 15 تموز/يوليو 1948)، بل كيف أدّت إلى ضم أراض جديدة في إسرائيل.

هذه بعض الأمثلة على الدور الذي كان لبريطانيا في حرب عام 1948. إنها تبين أن مسؤوليتها عن وقوع "الحرب" وعن سيرها وعن مصيرها مسؤولية رئيسية، و أنها صاحبة الدور الأساسي في تلك المعركة، توجهها سراً وعلناً، وتسييرها من وراء ستار. لقد أرادت تلك "الحرب" مسرحية تحقق من خلالها أهدافها وعودها القاطعة للصهيونية. واصطنعت ظروف تلك "الحرب" وأحداثها، وارتضت ما رافقها من قتل وتدمير وتشريد، ولم يسوؤها اندفاع العرب إلى الاستشهاد والتضحية والبلاء الحسن ما دامت واثقة أنها ستجعل منهم الغنائم والأسلاب.

ولا شك أن عوامل أخرى قد ساعدتها على الاضطلاع بهذا الدور، وهذا ما سنتحدث عنه فيما يلي، غير أنها تظل في قلب تلك العوامل وفي محور المؤامرة.

ثانياً – الولايات المتحدة ودورها

بدأ التدخل العملي للولايات المتحدة في القضية الفلسطينية منذ عام 1943، وذلك عندما طرحت قضية الأوروبيين الذين شردتهم الحرب، وكان بينهم ربع مليون يهودي. فقد اقترح ترومان، رئيس الولايات المتحدة آنذاك، إرسال اليهود إلى فلسطين.

ومنذ ذلك الحين حل التعاون والتآزر بين بريطانيا والولايات المتحدة في ما يتصل بفلسطين محل التنافس. لا سيما بعد أن تسلم ترومان رئاسة الولايات المتحدة بعد وفاة روزفلت، وبعد أن تسلم حزب العمال الحكم في

بريطانيا، والرئيس والحزب كما نعلم كانا من أشد المتحمسين للصهيونية ومن طلائع المنادين بتهويد فلسطين.

وفي عام 1945- كما سبق أن ذكرنا – أعلن المستر بيفن رسمياً أمام مجلس العموم (بتاريخ 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1945) دخول الولايات المتحدة طرفاً في القضية الفلسطينية.

ومنذ ذلك الحين أخذت الولايات المتحدة تلعب دوراً رئيسياً في قضية فلسطين، بل أخذ دورها يطغى شيئاً بعد شيء على دور بريطانيا، لا سيما أن مصالح الصهيونية والمصالح الأمريكية قد التقت منذ ذلك الوقت لقاء عميقاً، أدى إلى جعل الولايات المتحدة المدافعة الأولى عن اليهود والمنفذة لسياستهم وخططهم.

فلقد نشط الرأسمال الأمريكي في البحث عن قواعد أمنية له في الشرق الأدنى والأوسط، بعد أن تضخم واشتد جشعه للامتداد والسيطرة منذ عام 1939 بوجه خاص. والرأسمالية اليهودية كانت ولا تزال تشكل جناحاً قوياً في الرأسمالية الأمريكية. ومن هنا، وأمام هذه المصالح المتبادلة، وأمام تخوف الصهيونية من تلكؤ بريطانيا في الاستجابة لمطالبها، اختارت هذه الصهيونية السيد الأمريكي وارتمت في أحضانه ووضعت إمكاناتها في خدمة استعمارها الجديد.

وهكذا كان للولايات المتحدة شأن بارز في "حرب" عام 1948، وفي ما آلت إليه هذه "الحرب" من خلق لدولة إسرائيل. وقد تعاونت في هذا المجال مع بريطانيا خاصة ومع سائر حلفائها، غير أنها كانت في الواقع الممثل الصريح الجريء للأهداف الصهيونية، لا يأخذها فيها وجل أو حياء. وبعد هذا الموقف الأمريكي السافر من قضية فلسطين، أصبحت بريطانيا نفسها أكثر جرأة في تطبيق سياستها، ووجدت في شريكها دعماً لها ساعدها على أن تسفر عن نواياها حيناً أو على أن تنفذ هذه النوايا متسترة وراء حليفها أحياناً. وبفضل هذا الموقف الأمريكي أيضاً اطمأنت الصهيونية إلى مصيرها واشتد ساعدها وأخذت تسلك سلوك الريب المدلل، فتمعن فساداً في فلسطين وتمارس مع العرب سياسة الإرهاب والتقتيل والتشريد، وتضرب بقرارات هيئة الأمم عرض الحائط، وتسرح وتمرح مطمئنة إلى دعم السيد المطاع في الأوساط الدولية ولدى حلفائه.

وهكذا توحدت في كيان عضوي واحد القوى الثلاث المتآمرة على فلسطين، الولايات المتحدة وبريطانيا والصهيونية، وأخذت تلعب في أحداث حرب عام 1948 جوراً منسقاً متناغمًا، يعزف على وتر واحد ويتطلع إلى هدف مشترك متفق عليه.

ومن العسير أن نحيط بأوجه الدور الذي كان للولايات المتحدة خاصة في حرب عام 1948 وفي نتائجها. وحسبنا أن نورد فيما يأتي أهم مظاهر ذلك الدور:

1- الولايات المتحدة ونسف " الكتاب الأبيض ":

سبق أن رأينا كيف كان دخول الولايات المتحدة في حلبة الصراع سبباً أساسياً في القضاء النهائي على **الكتاب الأبيض** الذي تبنته بريطانيا بقوة في مرحلة سابقة، والذي رفضه المؤتمر الصهيوني عام 1942 رفضاً قاطعاً (في دورته الاستثنائية التي عقدها خلال شهر أيار/ مايو 1942) والذي نص بوجه خاص

على تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وقد تجلّى موقف الولايات المتحدة هنا من **الكتاب الأبيض** في التصريح الذي أدلى به الرئيس روزفلت في 16 آذار (مارس) 1944، والذي جاء فيه: "إن أمريكا لم توافق قط على **الكتاب الأبيض** لسنة 1939. وإني سعيد لأن أبواب فلسطين مفتوحة أمام اليهود. وعندما توضع القرارات في المستقبل فسوف ينصف أولئك الذين ينشدون وطناً قومياً لليهود"⁵.

وعلى أثر هذا التصريح اجتمع مؤتمر الحزب الجمهوري المعارض للرئيس روزفلت (في 12 حزيران/ يونيو 1944) وأيد بدوره قرار روزفلت وزاد عليه. فأجاب الحزب الديمقراطي - حزب الرئيس روزفلت - ببيان أحسن منه وأشدّ إمعاناً في تأييد الاستيطان اليهودي وفي تأييد الهجرة اليهودية غير المحدودة إلى فلسطين.

وعزز هذا الموقف الأمريكي وأكده من جديد، قرار اتخذه الكونغرس الأمريكي في اجتماعه التاسع والسبعين بتاريخ 19 كانون الأول (ديسمبر) 1945. ومما جاء فيه: "حيث أن الكونغرس في اجتماعه السابع والستين يوم 30 حزيران (يونيو) 1922 قرر بالإجماع أن الولايات المتحدة الأمريكية تحبذ إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين...، وحيث إن اضطهاد اليهود المجرّد من الرحمة في أوروبا أوضح الحاجة إلى وطن لهم...، وحيث أن الرئيس أيد هذه الحاجة بالسماح لمائة ألف يهودي بالدخول إلى فلسطين...، لذلك فإن المجلس... يقرر بالإجماع أن الاهتمام الذي أبداه الرئيس في حل هذه المشكلة كان في محله، وأن الولايات المتحدة سوف تستعمل مساعيها لدى الدولة المنتدبة لجعل أبواب فلسطين مفتوحة لدخول اليهود بحرية إلى ذلك البلد إلى أقصى قدرته. وسوف تتوافر هناك فرصة كاملة للاستيطان والتنمية، بحيث تكون لليهود الحرية في استئناف بناء فلسطين كوطن قومي لليهود، وبالإشتراك مع سائر عناصر السكان، لجعل فلسطين كومنولثاً ديمقراطياً، يكون الجميع فيه، بغض النظر عن الجنس والمذهب، متساوين في الحقوق"⁶.

وقد رافق ذلك- كما نعلم- تشكيل لجنة التحقيق الأنجلو-أمريكية التي باشرت أعمالها في الرابع من كانون الثاني (يناير) 1946 ووضعت توصياتها النهائية في 20 نيسان (إبريل) 1946. ويتكون تقرير هذه اللجنة من مقدمة وعشر توصيات وبعض الملحقات. وكان واضحاً من التقرير أن هدفه الأساسي إلغاء **الكتاب الأبيض** وبالتالي فتح أبواب فلسطين للهجرة وتأمين أكثرية يهودية فيها، كخطوة أولى نحو الخطوات التالية المرسومة، المؤدية في النهاية إلى خلق كيان إسرائيل على أوسع نطاق ممكن.

2- الولايات المتحدة ومشروع التقسيم:

وتجلّى الدعم الأمريكي واضحاً كذلك عند مناقشة مشروع التقسيم من قبل هيئة الأمم المتحدة. ولا حاجة إلى أن نعيد ذكر المناقشات التي جرت في هيئة الأمم مواقف الدول المختلفة ومناورات الولايات المتحدة خاصة للحصول على أكثرية ثلثي الأصوات المطلوبة لإقرار المشروع. وحسبنا أن نستشهد بذلك الحكم العام الذي

⁵ كتاب الوثائق Books Of Documents المقدم من الوكالة اليهودية إلى الأمم المتحدة.

⁶ نقلاً عن كتاب الوثائق، المذكور سابقاً.

أطلقه الكاتب الأمريكي ميلر بوروز على موقف دولته من هذا المشروع حيث قال⁷: "... ومسؤولية إقرار مشروع التقسيم من جانب هيئة الأمم المتحدة إنما تقع على حكومتنا الأمريكية. فالواقع أن التصويت على التقسيم إنما فرض من جانب حكومتنا فرضاً، بعد أن التجأت هذه الحكومة من غير خجل إلى اصطناع أساليب التهديد السياسي التي أكل الدهر عليها وشرب. ولم تكذ الجمعية تقر هذا المشروع حتى رحب به الصهيونيون كنصر معنوي كبير. ولكنه في الواقع كان نصراً غير أخلاقي. لقد كان برهاناً مخجلاً على أن أساليب التهويل والضغط الدبلوماسي غير المتحفظة وغير الأخلاقية تستطيع أن تسيطر على مؤسسة أنشئت لغرض النيل، هو تحقيق العدالة الدولية. ولقد كان ضربة مفعجة لثقة العالم بالأمم المتحدة و بالولايات المتحدة الأمريكية..".

وهكذا أدى موقف الولايات المتحدة إلى إقرار مشروع التقسيم في 29 تشرين الثاني(نوفمبر) 1947 بأكثرية 33 صوتاً ومعارضة 13 صوتاً وامتناع عشرة أصوات.

وقد سارعت بريطانيا إلى تأييد القرار، رغم تأكيداتها السابقة بأنها لن تشترك في تقرير أو تنفيذ أي حل لا يرضى عنه العرب واليهود على حد سواء. وأعلن مندوبها عزمه على تقديم كل المساعدات الممكنة لتطبيقه. وقد سبق أن رأينا كيف برّت بوعودها وكيف نفذت عن طريق حرب عام 1948 ما تجاوز هذا المشروع.

وإذا كانت الولايات المتحدة صاحبة القدر المعلى في إقرار مشروع التقسيم هذا، فمعنى ذلك أنها المفجرة الفعلية - بسبب هذا المشروع - "لحرب" عام 1948 والمسؤولة بالتالي عن فواجعها ونتائجها. وكلنا يعلم أن قرار التقسيم كان بداية كفاح عربي مرير من أجل إحباطه، كان في البداية كفاحاً شعبياً، ثم ما لبث أن أصبح كفاحاً رسمياً تبنته الجامعة العربية والدول العربية والجيش العربية أخيراً، وكان حصاه "الحرب" وشروها وذبولها الأليمة.

ورغم أن مجلس الأمن كان قد اتخذ قراراً في شهر آذار(مارس) 1948 يقضي بالرجوع مؤقتاً عن التقسيم، تحت ضغط الكفاح الذي قام به العرب بعد إقراره من قبل هيئة الأمم، فإن السياسة الأمريكية والسياسة البريطانية قد استعاننا به في الواقع وتصرفنا على أساسه قبل "حرب" عام 1948 وأثناءها، وجعلنا منه منطلقاً للحصول على مكاسب أوسع منه.

3- اعتراف الولايات المتحدة بقيام دولة إسرائيل:

عندما غادر المندوب البريطاني ميناء حيفا في منتصف ليل 15 أيار(مايو) عام 1948، معلناً نهاية الانتداب البريطاني (قبل الموعد المحدد تيسيراً لمهمة اليهود كما سبق أن ذكرنا)، أعلن اليهود فوراً قيام دولة إسرائيل.

وبعد إحدى عشرة دقيقة من إعلان قيامها اعترفت الولايات المتحدة رسمياً بها. وكان الرئيس الأمريكي قد احتلى في اليوم السابق (في 14 أيار/ مايو) بمستشاريه وبحث معهم لموقف، لا سيما من زاوية تأييد اليهود

⁷ في كتابه إسرائيل جريمتنا، الترجمة العربية، بيروت، دار العلم للملايين.

الأمريكيين له وللحزب الديمقراطي في الانتخابات المقبلة. واستدعى ظهر ذلك اليوم ممثل الوكالة اليهودية في واشنطن وأبلغه أن حكومة الولايات المتحدة قررت الاعتراف بدولته فور إعلانها.

ولم يكن هذا الاعتراف مفاجأة للصهيونيين، إذ كانوا على يقين من صدوره مسبقاً، وبنوا تصرفاتهم من قبل على أساسه. فقد صرح زعيمهم وايزمن قبل أيام قلائل بقوله: " لقد تمكنت من توطيد علاقتنا بأصدقائنا في واشنطن، وتأكدت أنه سيتم الاعتراف بالدولة اليهودية في اللحظة التي يعلن فيها عن قيامها".

وبالإضافة إلى هذا الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في الاعتراف بدولة إسرائيل، كان لها دور هام في قبول إسرائيل في هيئة الأمم. فقد تم هذا القبول (بتاريخ 12 أيار/مايو 1949) بفضل ضغطها أولاً وتأييد بريطانيا وفرنسا ثانياً، وبفضل وقوف الاتحاد السوفياتي نفسه إلى جانب قرار القبول هذا.

وهكذا نرى أن الولايات المتحدة – على الرغم من ابتعادها الظاهري عن مسرح الأحداث في فلسطين- كانت وراء الخطوات الأساسية و الحاسمة التي مكنت لليهود وساعدت على خلق دولتهم. ولا يقف دوره، في الواقع، عند ما ذكرنا من أمثلة، بل يتسلل إلى سائر أحداث "حرب" عام 1948، ويداخل معظم ما حيك خلالها من مؤامرات بين الدول الكبرى، ويكمن خلف معظم قرارات هيئة الأمم المتحدة ولجان التوفيق وسواها من الجهود الدولية. ذلك أن السياسة الصهيونية ارتبطت منذ السنوات السابقة "للحرب" ارتباطاً عضوياً بالسياسة الأمريكية، وأخذت اللحمة بينهما تشتد وتقوى يوماً بعد يوم، وأخذ دور بريطانيا وسواها من الدول الكبرى يتقلص أمام دور هذا الاستعمار الجديد الناشط.

ثالثاً- الصهيونية ودورها

من تحصيل الحاصل أن نقول إن "حرب" عام 1948 – شان سائر الأحداث التي شهدتها فلسطين- جزءٌ من المخطط الصهيوني الذي توضحت معالمه منذ أن نشر تيودور هرتزل أفكاره الصهيونية في كتابه الدولة اليهودية، ومنذ أن عقد أول مؤتمر صهيوني عالمي برئاسته ما بين 29 و31 آب (أغسطس) عام 1897 في مدينة بسويسرا.

وقد لبس هذا المخطط الصهيوني- كما نعلم- لبوس الظروف الدولية المختلفة، فكان مضمراً حيناً، صريحاً حيناً آخر، وتعاون تبعاً للظروف مع هذه الدولة الكبرى أو تلك. ولكنه كان دائماً يسعى وراء أهدافه الأصلية، يستغل من أجلها حليقاته دون أن يقنع بحدود الدعم الذي تقدمه، بل يتجاوزه دوماً ويطلب المزيد منه. وهكذا لم تكن الصهيونية تطمئن إلى وعود الدول الكبرى وتأييدها فحسب – رغم قوة تلك الوعود وتعاضم ذلك التأييد – بل كانت تضم إلى ذلك العون جهودها الذاتية وأساليبها الخاصة.

وفي "حرب" عام 1948 وما قبلها وما بعدها لعبت هذه الأساليب الصهيونية الخاصة دوراً بارزاً تضافر مع دور الاستعمار البريطاني والأمريكي وقواه كما تقوى به واشتد.

وكانت أبرز معالم ذلك الدور الصهيوني الخاص اعتماده على تنظيمه الإرهابية واتخاذ العنف وسيلة أولى وأساسية لتحقيق مطلب المطالب عنده، نعني به طرد العرب من ديارهم، واستلام فلسطين خلوة من أبنائها.

كذلك من أساليبه البارزة اللجوء إلى خداع العرب، ولا سيما في مجال القرارات الدولية التي يتم اتخاذها، واعتباره هذه القرارات - وإن جاءت إلى جانبه - خطوة يقبلها أو يرفضها ليتجاوزها في الحالين.

ومن العسير أن نحيط بثتى مظاهر الدور الصهيوني في حرب عام 1948. وحسبنا بعض الجوانب الأساسية:

1- "تنظيف" الأرض الفلسطينية قبل انسحاب الإنكليز:

بعد أن اتخذ الإنكليز قرارهم بالجلء عن فلسطين، تيسيراً لمهمة اليهود وتواطؤاً معهم، استغل اليهود هذه الفرصة ووضعوا نصب أعينهم "تنظيف" الأرض الفلسطينية وطرد مالكيها وسكانها قبل انسحاب الإنكليز (في 15 أيار/مايو 1948) أي خلال شهري نيسان وأيار (إبريل و مايو) من عام 1948. ولم يكتفوا بما يسره لهم الإنكليز من انسحاب من المناطق اليهودية ومن تضييق على المناطق العربية ومن تسليم العتاد والتحصينات لهم، بل قرروا أن يجاوزوا ذلك كله إلى وضع العالم أمام الأمر الواقع، عن طريق احتلال أجزاء متتالية من فلسطين وطرد أهلها منها. وقد فعلوا ذلك خاصة حين تراجع مجلس الأمن عن قرار التقسيم مؤقتاً كما سبق أن ذكرنا. فلقد قبل اليهود هذه الفرصة ليعتبروا هذا التراجع وكأنه دعوة لهم إلى تنفيذ قرار التقسيم بالقوة وإلى تجاوزه إلى ابعده منه.

وقد توسلوا لهذه الغاية باللجوء إلى الأعمال الهمجية والوحشية ضد العرب لإرهابهم وإخراجهم من ديارهم. وقد ساعدتهم على مهمتهم هذه أمران: أولهما: سكوت بريطانيا عن أعمالهم هذه في مقابل منع العرب من القيام بأي نشاط دفاعي ومنع الدول العربية من إرسال قوات نظامية ولو لإنقاذ القسم الذي قررت الأمم المتحدة - في قرار التقسيم - بقاءه عربياً؛

ثانيهما: أن اليهود كانوا قد تدربوا على القتال منذ أمد: تدربوا عليه في الفرقة اليهودية التي اشتركت مع الحلفاء بالحرب العالمية الثانية، وفي قواتهم العسكرية الضاربة المعروفة باسم "البالمخ" وقواتهم العسكرية المعروفة باسم "الهاغانه" وفي منظماتهم الإرهابية مثل "أرغون زفاي ليومي" و "شترن"⁸.

ومن الصعب أن نحصي جميع العمليات الإرهابية التي قام بها الصهيوينيون إنفاذاً لهدفهم، خلال الفترة الواقعة بين نيسان(إبريل) وأيار(مايو) 1948. ونكتفي بذكر العمليات التالية :

(أ) في مطلع نيسان شن اليهود هجوماً يستهدف فتح ممر بين تل أبيب والقدس، وشطر الدولة العربية التي اقترحها قرار التقسيم شطرين. وقد قاوم العرب هذا الهجوم بضراوة وانتهت معركة القسطل هذه بخسارتهم هذا الموقع الهام. غير أنهم استطاعوا الاحتفاظ بمنطقة اللطرون التي لا تقل أهمية عن القسطل.

(ب) بعد احتلال القسطل نفذ الصهيوينيون خطة عرفت باسم "خطة هاريل"، وهي تستهدف إخراج سكان قرى اللطرون عن طريق سلسلة من الأعمال الإرهابية التي تشيع الذعر في المنطقة. وكانت مذبحة دير ياسين

⁸ قدر عدد جنود "الهاغانه" آنذاك بنحو ثمانين ألفاً، وعدد منظمة "أرغون زفاي ليومي" بنحو عشرة آلاف مقاتل.

المعروفة (9 نيسان/إبريل 1948) جزءاً من الخطة المذكورة: فلقد هاجمت ليلاً هذه القرية الصغيرة المسالمة المجاورة للقدس مجموعتان إرهابيتان تابعتان لمنظمتي "أرغون" و"شترن"، وقتلتا كل مكان فيها من العرب (250 عربياً معظمهم من النساء والأولاد والشيوخ). وقد أعمل الصهيونيون، في تلك المذبحة البربرية، في سكان القرية القتل والتشنيع والتمثيل: فبقروا بطون الحبالى وذبحوا الأطفال في أحضان أمهاتهم، ثم ألقوا بالجثث في بئر القرية. ولقد قتل الكثير في هذه المذبحة الوحشية التي استهدف اليهود من ورائها إرهاب العرب في المناطق الأخرى وحملهم على ترك ديارهم. ومما قاله فيها اليهودي الصهيوني البريطاني جون كيمشي في كتابه **الأعمدة السبعة المنهارة**⁹: "... لقد كانت مذبحة دير ياسين نقطة سوداء في سجل التاريخ اليهودي خلال سني القتال كلها. ومما يبرر ذلك أنها أدت إلى هرب من تبقى من "الحرب" في منطقة الدولة اليهودية بسبب ما انتابهم من فزع، ومن ثم قلت الخسائر في الجانب اليهودي". وقد وصفها المؤرخ الشهير توينبي بأنها "جريمة شبيهة بجرائم النازية ضد اليهود". أما الصهيونيون فقد اعتبروها وسيلة مثلى لطردهم العرب وتحقيق أهدافهم. ومما قاله عنها مناحيم بيغن، قائد تلك المذبحة: "إن تلك المذبحة ليست مبررة فحسب، بل لولاها لما قانت دولة إسرائيل"¹⁰

(ج) نفذ الصهيونيون في 21 نيسان (إبريل) 1948 "خطة مسباريان" التي تقضي بنسف القرى العربية المحيطة بيافا، وهي قرى نص قرار التقسيم على إلحاقها بالقسم العربي. وقد غادرها نتيجة لذلك مائة ألف عربي خلال ثلاثين ساعة (إذا أدرك أبناء يافا أن نفس القرى يستهدف عزل مدينتهم).

(هـ) في اليوم نفسه بدأ الصهيونيون تنفيذ "عملية يوسي" التي تستهدف احتلال القرى العربية التي تشرف شمالاً على طريق رام الله - القدس، وشرقاً على طريق بيت لحم - القدس، وذلك تمهيداً للانقضاض على القدس نفسها. وقد أخفقت العملية، إلا أن الإرهاب الصهيوني حمل العديد من الفلاحين على هجر قرأهم.

(و) نفذ الصهيونيون "عملية يفتاح" القاضية بتنظيف الجليل الشرقي من سكانه.

(ز) وفي أيار (مايو) نجح الصهيونيون في تنفيذ خطة تقتضي باحتلال القرى الواقعة بين طبريا والجليل الشرقي. وقد أخلى عشرون ألف عربي المنطقة قبل وصول أعدائهم، ولجأوا إلى القرى السورية المجاورة.

(ح) في أيار (مايو) نجح الصهيونيون في تنفيذ "عملية جدعون" فاحتلوا بيسان وأبعدوا منها البدو.

(ط) في 14 أيار (مايو) شن الصهيونيون سلسلة هجمات تستهدف احتلال عكا وإخراج العرب من الجليل الغربي ومن القدس الجديدة. وقد سارع ستون ألف عربي من سكان القدس الجديدة إلى مغادرتها متجهين إلى الأردن.

⁹ Kimche: The Seven Fallen Pillars, New York, F.A. Preager, 1953, pp. 227-228

¹⁰ Menachem Begin, The Revolt: Story Of The Irgun, New York, Henry Schuman, 1951.

هذه بعض الأعمال الإرهابية التي قام بها اليهود إنفاذاً لخطتهم القاضية بطرد العرب من فلسطين. ولم نشر بين هذه الأعمال إلى الأعمال العديدة الأخرى التي ارتكبت قبل نيسان (إبريل) ثم بدءاً من 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 بوجه خاص.

وقد عبر عن الخطة الصهيونية هذه المجير إدغار أوبالانس فقال: " لقد كانت سياسة اليهود دفع العرب إلى ترك ديارهم، وقد استخدموا لهذه الغاية وسائل نفسية عديدة".¹¹

2- سياسة اليهود بعد الهدنة الأولى:

بعد بدء "الحرب" العربية – الإسرائيلية في أيار (مايو) 1948، وبعد أن حقق العرب صموداً وانتصاراً، أصدر مجلس الأمن قراراً بوقف القتال وافقت عليه إسرائيل، ووافق عليه العرب تحت ضغط والتهديد، بتاريخ 2 حزيران (يونيو) 1948، وتوقف القتال فعلاً في 17 منه لمدة أربعة أسابيع.

ورغم تهديدات مجلس الأمن ودوله الكبرى بحظر إرسال الأسلحة والمتطوعين إلى أي طرفين خلال فترة الهدنة، اغتنمت الصهيونية هذه الفرصة لتقوية إمكاناتها وللإعداد لجولة جديدة تكون فيها أكثر قوة وعتاداً. فبادرت العصابات الصهيونية العالمية إلى جلب المتطوعين وإدخال الأسلحة الثقيلة والخفيفة والطائرات من دول الغرب والشرق (ولاسيما تشيكوسلوفاكيا) إلى فلسطين، مستخدمة ميناء حيفا الذي سارعت بريطانيا إلى إخلائه لليهود في شهر نيسان (إبريل) 1948. وهكذا لم تنته فترة الهدنة إلا وكان لدى اليهود "جيش يهودي متماسك يملك قوة جوية خفيفة ولكنها فعالة، كما يملك أسطولاً بحرياً صغيراً وجريئاً" على حد قول جون كيمشي في كتابه المذكور سابقاً.¹²

وقد عبر عن هذه الحقيقة بن غورين في بيانه الذي ألقاه آنذاك لتبرير قبول حكومته لوقف إطلاق النار، فقال: "... خلال فترة وقف إطلاق النار سوف ننظم شؤوننا الإدارية تنظيمًا فعالاً، وسوف نثبت مواقعنا في المدن والقرى، وسوف نسرع في هجرة اليهود إلى فلسطين واستيطانهم، وسوف نعى بالجيش".¹³

وبالفعل، سخر اليهود من شروط الهدنة (في حين تقيد بها العرب) وجعلوا منها فرصة الدهر لتمكين دولتهم، واستغلوا كل دقيقة في جلب السلاح والطيارين والمحاربين، وظلوا يخرقون خطوط الهدنة في مختلف الجبهات من أجل تحسين مواقعهم، وتمكنوا من تموين مستعمراتهم المنعزلة وأحيائهم في القدس الجديدة، بل أنشأوا طريقاً جديدة بين القدس ويافا.

3- سياسة اليهود بعد الهدنة الثانية:

¹¹ Edgar O'Ballance, The Arab-Israeli War, 1948,p.64.

¹² Kimche: The Seven Fallen Pillars, New York, F.A.Preager, op.cit. Pp.240-250.

¹³ Ben Gurion, Rebirth and Destiny Of Israel, New York, The Philosophical Library, 1954,p.296.

بعد استئناف القتال في 9 تموز (يوليو) 1948، قامت الهدنة الثانية- كما نعلم- بتاريخ 19 تموز (يوليو) ووافق العرب على قرار مجلي الأمن الذي يقضي بوقف القتال. وهكذا أيضاً، نكت اليهود بعهدهم ولم يحترموا اتفاق الهدنة، بل جعلوا منه فرصة تفوق فرصة الهدنة الأولى فيما حققه لهم من مكاسب. وقد لجأوا هذه المرة إلى خرق الهدنة بشكل مفضوح وإلى شن اعتداءات غادرة على مواقع العرب وإلى تشريد عدد جديد من السكان.

ومن الأمثلة على اعتداءاتهم بعد هذه الهدنة الثانية هجومهم على الجبهة المصرية بتاريخ 15 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 واحتلالهم مدينة بئر السبع في 21 منه، ثم بيت جبرين بعد ذلك. ونتيجة لخرق اليهود الاتفاق وقف إطلاق النار، تجددت المعارك الجانبية بين العرب واليهود، وحشد اليهود حوالي 15 ألف مقاتل في النقب، واسترجوا القوات المصرية وحاصروها في الفالوجة. وعندما طلب مجلس الأمن من جديد بتاريخ 22 تشرين الأول (أكتوبر) وقف إطلاق النار، لم تتقيد إسرائيل أيضاً بالقرار، وتابع إيغال ألون قصف الحامية المصرية في الفالوجة. وفي الوقت نفسه قامت قوات كبرى بتنفيذ "عملية حيرام"، وتمكنت من احتلال الجليل الأعلى والتوغل في لبنان حتى نهر الليطاني مما أدى على تدفق عشرة آلاف لاجئ جديد على المدن اللبنانية.

ولا ننس أن اليهود لجأوا خلال هذه الفترة إلى اغتيال الكونت برنادوت، وسيط هيئة الأمم، في 17 أيلول (سبتمبر) 1948، مع مرافقه الفرنسي الكولونيل سيرو، وذلك بعد أن انتقد تصرفاتهم ووصفها بـ "التهب والسلب والسرقة وتدمير القرى دون مبرر عسكري واضح" وبعد أن تقدم بمشروع تقسيم جديد لم يرض عنه اليهود.

وهكذا حين وقعت إسرائيل مع العرب اتفاقيات الهدنة الدائمة (في رودس)، كانت اعتداءاتها المتكررة وخرقها لاتفاقيات الهدنة قد أكسبتها أراضي شاسعة من القسم الذي قررت الأمم المتحدة بقاءه عربياً، ومكنتها من طرد السكان العرب من ديارهم. وقد سبق أن ذكرنا أن إسرائيل أصبحت تسيطر بموجب اتفاقيات الهدنة النهائية (في رودس) على 80% من مساحات فلسطين (20,850,000 دونم) بدلا من 56% من مساحتها (14,500,000 دونم) هي التي خصصها لها قرار التقسيم.

4- إسرائيل بعد اتفاقيات الهدنة النهائية:

على الرغم من المكاسب الكبرى التي حققتها اتفاقيات الهدنة الدائمة في رودس¹⁴ لإسرائيل، فقد ظلت عازمة على الاستمرار الاعتداء والتوسع.

ففي 10 آذار (مارس) 1949، أي بعد الاعتداء 13 يوماً من توقيع الهدنة مع مصر، تابعت القوات الإسرائيلية اعتداءاتها على القوات المصرية في جنوبي النقب، واحتلت النقب الجنوبي حتى وصلت إلى

¹⁴ تم توقيع اتفاقيات الهدنة بين إسرائيل ومصر في 24 شباط (فبراير)، وبين إسرائيل ولبنان في 23 آذار (مارس)، وبين إسرائيل والأردن في 3 نيسان (أبريل) - وبين إسرائيل وسورية في 20 تموز (يوليو)، من عام 1949.

خليج العقبة واحتلت أم الرشراش العربية وطردن أهلها وأخذت ممتلكاتهم. وفي ذلك المكان انشأت إسرائيل ميناء ايلات في ارض عربية وأشرفت على خليج العقبة والبحر الأحمر.

وقد نصت اتفاقيات الهدنة مع مصر وسورية على إقامة أربعة قطاعات مجردة من السلاح، ثلاثة منها على الحدود السورية، والرابع في العوجا على حدود سيناء المصرية. كما نصت الاتفاقية مع الأردن على إقامة منطقة حرام في جبل المكبر وفي القدس وقرب اللطرون. غير أن هم حكومة إسرائيل كان التوسع في هذه المناطق والقطاعات، فقامت بالاستيلاء على أكثرها و التصرف فيها. وكان عملها هذا سببا للقتال مرات عديدة مع القوات السورية ثم مع الأردنية ثم مع المصرية في تواريخ متعددة.

ولم تكثف إسرائيل بأن ضمت إليها مناطق مجردة من السلاح ومناطق حراما أراضيها ملك للعرب، خلافا لشروط الهدنة وقرارات مجلس الأمن، بل أخذت تتجاوز خطوط الهدنة على الحدود السورية والأردنية والمصرية وتقتل الكثير من السكان وتهدم البيوت، وذلك لإرهاب الأهلين وحملهم على الرحيل.

وقد استمرت هذه الاعتداءات – كما نعلم – حتى "حرب" 5 حزيران (يونيو) 1967، وأخذت شكلا أوسع بعدها، مما سيأتي تفصيله فيما بعد.

وهكذا نرى أن الصهيونية كانت صاحبة دور خاص في حرب عام 1948 اضيف دور بريطانيا والولايات المتحدة، وزاد عليه، وادي إلى تحقيق مرحلة هامة من المخطط الصهيوني، تجلت في قيام دولة إسرائيل على ما يجاوز 80% من الأرض الفلسطينية، وفي تشريد العدد الأكبر من أبناء فلسطين ، وفي فرض اتفاقيات الهدنة على الدول العربية وإرغامها على القبول بالأمر الواقع.

رابعاً- دور هيئة الأمم المتحدة

كان معظم الدور الذي لعبته هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن التابع لها، بمثابة تغطية لدور أمريكا وبريطانيا. يضاف إلى ذلك ما لجأت إليه الصهيونية العالمية – مدعومة دوما من أمريكا وبريطانيا – من مناورات دولية من اجل الحصول على القرارات الملائمة من قبل هيئة الأمم ومجلس الأمن، وتلك القرارات التي كانت تنطلق منها لتتجاوزها وتخطو خطوات أوسع منها، وكثيرا ما كانت تخالف تلك القرارات ولا تكثرث بها، مطمئنة إلى موقف أمريكا وبريطانيا. ولم تكن تلك القرارات تلزم في الواقع سوى الدول العربية التي كانت تتقيد بها، مفسحة بذلك لإسرائيل مجال تنفيذها لصالحها وعلى نحو ما يحلو لها.

وفي الجملة استطاعت قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن – كما سنرى – أن تلجم الدول العربية وان تعطل نضالها وانتصاراتها، ولم تقو على لجم إسرائيل، بل يسرت لها أغراضها في معظم الأحيان. وكانت إسرائيل حرة في أن تقبل تلك القرارات أو ترفضها أو تتجاوزها تبعا لما تستلزمه خطتها هي، دون أن يؤدي موقفها في أي حال من الأحوال إلى استنكار هيئة الأمم وجلس الأمن، أو إلى تطبيق عقوبات عليها. وفي ما يلي بعض الأمثلة على دور هيئة الأمم ومجلس الأمن في ترجيح كفة "الحرب" أثناء معركة 1948 لصالح إسرائيل، وفي تمكينها من إقامة دولة إسرائيل:

1-مجلس الأمن والهدنة الأولى:

بعد أن دخلت الجيوش العربية فلسطين، كان الموقف في البداية لصالح الدول العربية، التي كادت جيوشها، في أواخر أيار (مايو) 1948، تحرق بئر أبيب فاصلة جنوبها عن شمالها قرب نتانيا. وكانت الكتائب المصرية قد سطرت على غزة وبئر السبع، كما سارت الكتائب العراقية في اتجاهين أحدهما نحو نابلس فطولكرم فقلقيلية (حتى مشارف مستعمرة ناتانيا)، وثانيهما في اتجاه مرج ابن عامر على مشارف مستعمرة العفولة. وكانت الكتائب السورية قد احتلت سمخ واتجهت للسيطرة على جسر بنات يعقوب، والكتائب اللبنانية احتلت الناقورة وقرية المالكية وأخذت تهيمن على معابر الجليل الغربي، والكتائب الأردنية احتلت أريحا والقدس وسيطرت على طريق القدس- الرملة، كما عسكرت إحدى قواتها حول اللد والرملة. وكان المجاهدون الفلسطينيون يبذلون بلاء عظيمًا ويساندون الجيوش العربية الزاحفة.

في أوج الانتصارات وجه مجلس الأمن – بتحريض من الدول الكبرى- نداء بوقف القتال بدءاً من 22 أيار (مايو) 1948. وقد وافق اليهود على ذلك دون قيد أو شرط – لأنه كان مطلباً لهم- في حين استنكره العرب واجبروا على وقف القتال في الساعة السادسة من صبيحة يوم الجمعة في 11 حزيران (يونيو) 1948 لمدة أربعة أسابيع.

وقد سبق أن رأينا كيف أن اليهود كانوا حرصين على هذه اللجنة وكيف أفادوا منها لجلب السلاح والمهاجرين والطياريين المحترفين وكيف قاموا خلالها بخرق خطوط الهدنة في كثير من الجبهات – دون أن يتحرك مجلس الأمن- وكيف استولوا خلالها على ميناء حيفا لعدا ناخلاه الانكليز.

وهكذا حقق مجلس الأمن لليهود- بفضل قرار وقف إطلاق النار- مطلباً غالياً، ومكنهم من إعادة تنظيم أنفسهم وبناء قواهم، في حين منع السلاح عن العرب منعا قاطعاً.

2-مجلس الأمن والهدنة الثانية:

بعد استئناف القتال في 9 تموز (يوليو) 1948 ، وبعد أن مال الموقف لصالح اليهود (نتيجة للاستعدادات التي قاموا بها خلال فترة الهدنة الأولى)، وبعد أن استولى اليهود على العديد من المدن والقرى، وأصبحوا في مركز حربي ممتاز، قرر مجلس الأمن مرة ثانية وقف إطلاق النار، وحدد لذلك موعداً هو يوم الاثنين في 19 تموز (يوليو) 1948. وقد اضطرت الدول العربية إلى قبول هذا القرار تحت ضغط الدول الكبرى ومجلس الأمن. وتقيدت الدول العربية بوقف إطلاق النار بينما كان تقييد اليهود شكلياً، فقد استمروا في خرق خطوط الهدنة وفي الاستيلاء على مواقع جديدة، دون أن يأبه مجلس الأمن لذلك. بل بلغ بهم الأمر حد اغتيال الوسيط الدولي الكونت برنادوت ومرافقه الفرنسي، بعد أن أرسل الجمعية العمومية للأمم المتحدة توصياته واقترحاته التي لم ترق لليهود. ولم تستنكر هيئة الأمم هذا التحدي وسكتت عليه.

وعندما عقدت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، اغتتم اليهود هذه الفرصة وأرادوا أن يضعوا أمام الأمر الواقع ووسعوا عملياتهم الحربية. فراحوا يشنون الهجمات في النقب منذ 14 تشرين الأول (أكتوبر) 1948 على الخطوط المصرية، وتمكنوا من احتلال النقب كما تمكنوا من تصفية الجيوب الفلسطينية في الشمال و

احتلال خمس عشرة قرية لبنانية ظلت في أيديهم حتى عقد الهدنة الدائمة بينهم وبين لبنان. ورغم ذلك كله ، لم تحرك هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن ساكناً.

3-مجلس الأمن والهدنة الدائمة:

في 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 اصدر مجلس الأمن قرارا دعا فيه الفريقين المتحاربين للتفاوض من اجل إقرار هدنة دائمة. وكان واضحاً أن هذا القرار يعني تكريس حدود إسرائيل على نحو ما انتهت إليه بعد الحرب، وبعد أن تجاوزت إسرائيل أكثر من مرة مواقعها وخرقت الهدنة للحصول على مكاسب جديدة.

وقد اضطرت الدول العربية إلى القبول بهذا القرار، ووقعت كل من مصر ولبنان والأردن وسورية اتفاقيات الهدنة في رودس. وبذلك أكمل مجلس الأمن الفاجعة وتوجهها، ورسخ قواعد إسرائيل، وفرض على الدول العربية الأمر الواقع، بدلاً من إعادة بحث المسألة من جذورها.

واستطاعت إسرائيل فوق ذلك أن تنتزع الاعتراف بها من هيئة الأمم المتحدة كما رأينا، وتم قبولها عضواً فيها منذ 11 أيار (مايو) 1949، بفضل مناورات الولايات المتحدة الأمريكية والدول الكبرى.

4-هيئة الأمم المتحدة ومشروع التقسيم:

والواقع أن دور هيئة الأمم المتحدة في "حرب" 1948 قد بدأ قبل "الحرب"، منذ أن أقرت هذه الهيئة مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، مساء 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947، تحت ضغط الولايات المتحدة ووعدها ووعيدها.

ولم يكن عملها هذا دخولاً في لعبة الصهيونية والاستعمار فحسب، بل كان مخالفة واضحة لدستورها وللأغراض الأساسية التي أنشئت من أجلها، نعني حفظ حق جميع الشعوب، كبيرها وصغيرها، في تقرير مصيرها. ولا حاجة إلى القول أن هيئة الأمم المتحدة لا تملك، بحكم صلاحياتها، أن تقرر تقسيم دولة قائمة إلى دولتين.

وعندما عارض العرب هذا المشروع وناضلوا وقاتلوا ضده، كادت هيئة الأمم، تحت ضغط الوكالة اليهودية، تلجأ إلى تنفيذه بالقوة عن طريق إرسال قوات دولية.

وبعد أن انسحبت الولايات المتحدة تأييدها للمشروع، أمام الموقف العربي الصلب، عاد مجلس الأمن فتراجع عن قراره السابق، وكأنه لعبة في يد أمريكا.

غير أن الرجوع عن القرار لم يمنع إسرائيل من تنفيذ هذا القرار فعلاً، بل سمح لها في الواقع بتنفيذه وتجاوزه معاً، كما سبق أن رأينا. ولم تكثرث هيئة الأمم ولم يأبه مجلس الأمن لسياسة الأمر الواقع التي فرضها اليهود على مراحل، ولم يستتكر اعتراف الولايات المتحدة بإسرائيل بعد إعلان قيامها بدقائق ليلة 14 أيار (مايو) 1948. وكان هذا التآمر الصامت أساسياً في تفجير "حرب" عام 1948، حين لم يجد العرب بعده سبيلاً سوى ركوب الأسنة وانتزاع حقهم بأيديهم.

وهكذا نرى أن هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن أسهما في تفجير "حرب" عام 1948، وأسهما في سيرها لصالح اليهود بعد قرار الهدنة الأولى، وسهلا لإسرائيل التوسع نتيجة لقرار الهدنة الثانية، وسكتنا عن تجاوزاتها وخرقها للقرارات الدولية، وثبتنا قواعدنا وكرسا الوضع غير الشرعي الذي انتهت إليه بعد الحرب بالخدعة والمناورة والسطو، وذلك حين طلبنا إلى العرب توقيع اتفاقات الهدنة، التي لم تكن في الحقيقة سوى اعتراف فعلي بالكيان الإسرائيلي بحدوده الواسعة التي انتهى إليها، وبعد أن استولى على أكثر من 80% من الأرض الفلسطينية. وفضلاً عن هذا وذاك سكتت هيئة الأمم عن قضية اللاجئين، ولم تقدم لها سوى حلول جانبية مخجلة، كما سنرى فيما بعد.

خامسا- العرب ومسئوليتهم:

مهما تكن ضخامة الجور الذي قامت به بريطانيا والولايات المتحدة والصهيونية وهيئة الأمم، ومهما يكن الطوق الذي ضربه هذا الحلف الاستعماري الصهيوني قاسيا، فإن مسؤولية العرب والدول العربية تظل قائمة وكبيرة. وليس من الصحيح القول أن الدول العربية ما كان في وسعنا أن تفعل أفضل مما فعلت، وسط التآمر الدولي الخطير. ولا يجدي في شيء أن نبرئ هذه الدول وان تلقى المسؤولية على سواها. فالقضية أولاً وأخراً لا يصونها إلا أربابها، ولا تلقى من المجتمع الدولي أكثر مما يفرضه عليه أهلها وذووها. وحين تهون القضية على أصحابها، لا بد أن تكون أهون على أعدائها والغرباء عنها.

والحق أن الدول العربية لم تحسن التصرف في الهامش المتروك لها، ولما تعرف أن تفيد من طاقاتها وإمكاناتها، بل أنها وقعت في معظم الأحيان في ألعيب الدول الكبرى والصهيونية ونفذت إراداتها عن جهل حيناً وعن وعي وتآمر أحياناً. حتى إننا لا نغلو إذا قلنا – مع أنيا فرنكوس: "إن حرب 1948 كانت سلسلة أخطاء وخيانات"¹⁵.

وقد يمضي بنا التحليل بعيداً إن نحن أردنا أن نتوقف عند تفصيلات الأخطاء العربية والخيانات العربية في "حرب" عام 1948 وحسبنا أن نشير إلى أبرزها وأهمها في كثير من الإيجاز:

1-جامعة الدول العربية وقرار التقسيم:

سبق أن رأينا كيف قابلت الجماهير العربية مشروع قرار التقسيم بالهياج والتظاهر والمصادمات، وكيف سارع عرب فلسطين إلى خوض المعارك مع العصابات الصهيونية المسلحة والمدربة، معتمدين على عون جامعة الدول العربية ودولها.

وفي غمرة ذلك القلق والهياج، عقدت جامعة الدول العربية اجتماعاً في القاهرة بتاريخ 8 كانون الأول (ديسمبر) 1947 حضره رؤساء وزارات الدول العربية. ولكن ذلك الاجتماع لم يتمخض إلا عن نداء أصدره مجلس الجامعة ووجهه للأمة العربية والرأي العام العالمي. ولم يتخذ المجلس أي إجراء عملي

¹⁵ أنيا فرنكوس، الفلسطينيون، بيروت، مكتبة أنطوان ودار النهار، 1969، ص 65.

سوى تنفيذ قراراته السابقة المتعلقة بإمداد أهل فلسطين بالسلاح والمال والرجال. وكانت تلك القرارات (ولاسيما قرارات مؤتمر عاليه في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1947) تقضي بتقديم ما لا يقل عن عشرة آلاف بندقية إلى أهل فلسطين. وزاد قرار مجلس الجامعة الجديد على قراراته السابقة تقدير عدد المتطوعين الذين يجب إرسالهم إلى فلسطين بثلاثة آلاف متطوع تتولى لجنة الجامعة العربية العسكرية توزيعهم على جبهات فلسطين!

وقد اتخذ مجلس الجامعة العربية هذه القرارات الهزيلة رغم أنه درس تقرير لجنته العسكرية التي شكلها في أيلول (سبتمبر) 1947، وفيه قدرت القوات اليهودية المحاربة بستين ألف شخص مدرب ومسلح بأحدث الأسلحة، ورغم معرفته بحقيقة قوات جيش "الهaganاه" و "البالمخ" (أو فرقة الصاعقة)، وعصابة "شترن"، وبوليس المستعمرات، قوى سكان المدن والمستعمرات. وما كان مجلس الجامعة يجهل أيضا واقع أسلحة اليهود في فلسطين آنذاك وما أورده التقرير البريطاني الرسمي عنها عام 1946.

وفوق هذا وذاك لم تكن تلك الأسلحة الهزيلة التي قررت الجامعة تقديمها لأبناء فلسطين سوى بنادق قديمة من نماذج مختلفة، ولم تصل إلى اللجنة العسكرية في دمشق لتوزيعها إلا في شهر آذار (مارس) 1948¹⁶.

ومع ذلك، عندما دخلت فلسطين في أوائل عام 1948 ثلاث كتائب من المتطوعين المدربين بلغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف مسلح (أطلق عليها اسم "جيش الإنقاذ العربي")، استطاع هؤلاء المتطوعون، على الرغم من سوء تسليحهم ونقص تدريبهم، أن يوجهوا - بمساعدة شعب فلسطين - ضربات قاصمة إلى القوات اليهودية، وان يبيلوا بلاء حسنا ويسجلوا بطولات كبيرة. وهكذا أجبروا اليهود على التراجع في كل مكان وشلوا حركتهم، مما اضطر مجلس الأمن، إزاء تدهور أوضاع اليهود، إلى إهمال قرار التقسيم.

هذا ما كان رغم تلك المساعدة الهزيلة التي قدمتها دول الجامعة العربية. ومن حق المرء أن يتساءل عن مدى النصر الذي كان في وسع أبناء فلسطين وأبناء البلدان العربية إن يحققوه لو جاءت مساعدات الدول العربية في المستوى المطلوب، المتناسب مع قوات اليهود المسلحة والدرية والكبيرة.

2-الدول العربية وقرار دخول العرب:

بعد تراجع مجلس الأمن الظاهري عن قرار التقسيم، أعلنت بريطانيا - كما نعلم - عزمها على الانسحاب نهائيا من فلسطين وانسحبت فعلا (قبل الموعد الأصلي) بتاريخ 15 أيار (مايو) 1948. وخلال الفترة التي سبقت الانسحاب تركت البلاد - كما سبق أن رأينا - نهبا للفوضى والاضطراب، ويسرت لليهود أمر الاستيلاء على القسم المخصص لليهود وعلى بعض الأقسام المخصصة للعرب. وقد كان هدفها من إعلان الانسحاب - كما سبق أن قلنا - تنفيذ قرار التقسيم فعلا، رغم تراجع مجلس الأمن عنه شكلا.

¹⁶ من أجل المزيد من التفاصيل حول عدد البنادق ونماذجها وعدد طلقاتها وتوزيعها بين الدول العربية، يحسن الرجوع إلى كتاب شفيق الرشيدات، فلسطين: تاريخاً وعبرة ومصيراً، بيروت، دار النشر المتحدة للتأليف والترجمة، 1961، ص 218-223. كذلك نجد في هذا الكتاب القيم وصفاً مفصلاً لموقف الدول العربية في "حرب" عام 1948 (ولاسيما في الفصلين السادس والسابع منه).

وكان ما كان من تسليم المعسكرات والمعدات لليهود ومن تجير العرب من كثير من المناطق. ولقد ساءت أحوال المجاهدين الفلسطينيين وقوات جيش الإنقاذ وسط هذا الجو، لا سيما أن القوات البريطانية ضيقت الخناق على تسليحها وتحركاتها.

وهنا ظلت الجامعة العربية صامته جامدة نكتفي بالتصريحات والاجتماعات. الأمر الذي أدى إلى نقمة الجماهير العربية والتي قيام مظاهرات شعبية صاخبة تطالب دول الجامعة بمعالجة الموقف وتنادي بتدخل الجيوش النظامية لإنقاذ هرب فلسطين.

وهكذا اضطرت اللجنة السياسية للجامعة العربية، أمام موقف الجماهير الشعبية، إعلان قرارها بتدخل الجيوش العربية بتاريخ 12 نيسان (إبريل) 1948، وحددت يوم 15 أيار (مايو) موعداً لتحرك تلك الجيوش.

ولكن الإحداث والوثائق كشفت بعد ذلك عن أن القرار لم يتم إلا بهد أن وافقت بريطانيا عليه، وبعد أن قيدته - كما سبق أن رأينا - بشرط أفقده معناه، وهو أن يقتصر هدف الجيوش العربية على حماية الأراضي التي خص قرار التقسيم العرب بها وألا تغزو هذه الجيوش بحال من الأحوال الأراضي التي هي من نصيب اليهود. وقد عبرت عن ذلك بوضوح المفاوضات التي جرت بين المستر بيفن، وزير الخارجية البريطانية، وبين توفيق أبو الهوى، رئيس الوزارة الأردنية، في ربيع عام 1948.¹⁷

وأحداث "الحرب" - كم نعلم - أكدت فيما بعد هذه الحقيقة، حين أحجمت الجيوش العربية، في أكثر من موقع، عن أن نمضي في تقدمها - رغم قدرتها - إلي ما يجاوز الحدود المتفق عليها.

وهكذا استخدمت بريطانيا حلفاءها العرب لإتمام مؤامرتها. وجعلتهم يخوضون "الحرب" ويتحملون ويلاتهما غير مجاوزين حدود ما وسمته لهم.

ولا ننس أن الذي تولى رئاسة أركان الجيوش العربية الزاحفة على فلسطين كان غلوب باشا، الجنرال الانكليزي، الذي كان من الطبيعي أن يقود تلك "الحرب" وفق الخطة التي أرادها الانكليز.

وفوق هذه وذلك، رافقت قرار الجامعة العربية القاضي بتدخل الجيوش العربية في معركة فلسطين (لإبطال التقسيم وتحرير فلسطين!) إجراءات فرعية عطلت قوى الشعب العربي الفلسطينيين ويسرت بالتالي لهذه الجيوش تسيير المعركة وفق الأهداف المرسومة لها. واهم تلك الإجراءات الخطيرة ما يأتي:

(أ) اعتبار الجيوش العربية الوسيلة الوحيدة الصالحة لحماية عرب فلسطين وإنقاذ عروبتها.

(ب) حل جميع المنظمات العسكرية الشعبية في فلسطين وتوقيف نشاطها وأبعادها عن المعركة.

(ج) عزل جميع الأحزاب والهيئات السياسية الفلسطينية عن مباشرة قضية فلسطين أو الاشتراك في العمليات العسكرية وترك معالجة القضية كاملة للجامعة العربية والجيوش العربية.

¹⁷ انظر تفاصيل تلك المفاوضات في كتاب شفيق رشيدات، فلسطين، المذكور سابقاً، ص 241-242.

هذا بالإضافة إلى القرار الخاص بوضع خطة عسكرية مشتركة لجميع تحركان الجيوش العربية في فلسطين، وتكوين هيئة قيادة عامة واختيار القائد الأعلى للجيش الأردني (الجنرال غلوب الانكليزي) رئيساً لهذه الهيئة. أضف إلى ذلك إعلان حالة الطوارئ والأحكام العرفية في البلدان العربية، بحجة حماية الجيوش الزاحفة.

3-موقف الجيوش العربية في بداية الحرب:

وبعد أن دخلت الجيوش العربية "للحرب"، تكشف سلوكها الخاضع للشروط البريطانية المسبقة منذ البداية: فقد تقدمت تلك الجيوش واحتلت كثيراً من المواقع، وكادت تسيطر على الموقف – كما رأينا- وبدا من السهل عليها أن تواصل الزحف وتحتل المناطق القليلة المتبقية التي احتلتها اليهود أثناء وجود القوات البريطانية. غي أن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل أخذت الجيوش تراوح مكانها وتحجم عن التقدم: فتوقف الجيشان الأردني والعراقي في الأماكن المعينة لهما عند حدود المنطقة المخصصة لليهود ولم يتخطياها، وتوقف الجيش اللبناني الصغير الناشئ، وتوقف الجيش السوري الفتى عند استحکامات "خط إبدن" الذي سلمه الانكليز لليهود قبل جلائهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل استجابت الدول العربية لنداء حليفاتها، ووافقت على نداء مجلس الأمن (بتاريخ 22 أيار/ مايو 1948) القاضي بوقف إطلاق النار، وتوقفت عن القتال فعلاً لمدة أربعة أسابيع في صبيحة السابع من حزيران (يونيو) 1948.

وكانت هذه الاستجابة لنداء مجلس الأمن كارثة الكوارث وفضيحة الفضائح. لقد كشفت عن حقيقة أهداف الدول العربية حين دخلت "الحرب" وعن عهدها المسبقة لحلفتها بريطانيا. وضيعت بذلك على الأمة العربية فرصة العمر، وخسرت المعركة نهائياً حين قبلت بتلك الهدنة. وقد سبق أن رأينا كيف أفاد الصهيونيون من فترة الهدنة هذه فأعدوا العدة لجولة جديدة رجحت فيها كفتهم.

4- الدول العربية واستئناف القتال:

وحين استأنفت الدول العربية القتال في 9 تموز (يوليو) 1948- بعد فترة الهدنة التي أعد خلالها اليهود عدتها الكاملة – سار القتال في الأيام الأربعة الأولى مع ذلك سيراً رجحت فيه كفة العرب، واستطاعة أن يزيحوا القوات اليهودية عن نقاط كثيرة استولت عليها أثناء الهدنة . وان يتقدموا في مواقع عديدة في الشمال والوسط والجنوب. وعاود السلاح الجوي العربي – وخاصة المصري – غاراته على تل أبيب وغيرها، واشتد الضغط على الأحياء اليهودية في القدس.

ثم ما لبث الموقف أن تغير، حين انسحبت القوات الأردنية من حول اللد والرملة، وانسحبت القوات العراقية من رأس العين وبجدل بني فاضل وبعض مناطق مرج ابن عامر. ومن الصعب تفسير هذه الانسحابات وان يكن العسكريون قد قدموا تفسيرات مستندة إلى الاعتبارات العسكرية. وإذا نحن تفينا عن هذا الحادث صفة التأمّر، يظل من الصحيح انه يكشف على اقل

تقدير عن نقاط الضعف والقصور في الجيوش العربية وقيادتها وأسلوب عملها: فلقد استأنفت الجيوش العربية "الحرب" وليست لها قيادة عامة فعلية ولا خطة عامة. كما أنها لم تكن تملك القدر الكافي من العتاد. وكانت تفتقر إلى اللحمة والانسجام. وهكذا واجه حوالي 40 ألف عربي مفككين مشرذمين ثلاثة وسبعين ألف محارب يهودي مجهزين بأحدث الأسلحة.

وقد بحثت اللجنة السياسية للجامعة العربية فيما بعد أمر توحيد القيادة العسكرية فلم تنته إلى شيء، بسبب موقف الشك والانكماش الذي وقفته مصر خاصة¹⁸ (وقد كان لمصر في أحداث 1948 جميعها دور سلبي أساسي).

بل أن الصف العربي قد ازداد تراخيا وانقسامًا، بعد نشوء حكومة عموم فلسطين ومؤتمر غزة، وبعد الاختلاف الذي وقع حول ذلك بين مصر والأردن، على نحو ما رأينا من قبل.

وهكذا كان لا مناص أمام جامعة الدول العربية من أن تقبل في النهاية بالهدنة الثانية وان تستجيب لقرار مجلس الأمن بوقف القتال، بتاريخ 18 تموز (يوليو) 1948. وفعلت ذلك بعد أن أوصلت القضية الفلسطينية إلى منحدر خطير، وتركت الجزء الأكبر من فلسطين لليهود.

5- الدول العربية واتفاقيات الهدنة في رودس:

وقد توجت الدول العربية تنازلاتها هذه بسكوتها عن الاعتداءات الجديدة التي أخذت إسرائيل تقوم بها رغم قرار وقف القتال، وعن الأراضي الجديدة التي راحت تحتلها، إلى أن ختمت أعمالها، أخيراً، بالتوقيع على اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل وفيها قدمت - كما نعلم - تنازلات جديدة مخجلة.

وقد جنت مصر في البداية إلى الدخول في محادثات منفردة لتوقيع الهدنة الدائمة. فالتقى وفدان عسكريان، مصري ويهودي، في جزيرة رودس اليونانية، وبدأت محادثات الهدنة تحت إشراف الوسيط الدولي رالف بانس، ووقعت الاتفاقية بين الطرفين بتاريخ 24 شباط (فبراير) 1949.

وكان طبيعياً أن تلحق بقية الدول العربية بمصر و فوق لبنان اتفاقية الهدنة في رأس الناقورة بتاريخ 23 آذار (مارس) 1949. ووقعت سوريا الاتفاقية بتاريخ 20 تموز (يوليو) 1949. ثم وقعت الأردن الاتفاقية في رودس، فكانت كارثة جديدة، إذ ضم إلى القسم اليهودي بموجبها أكثر من نصف مليون دونم من أخصب أراضي فلسطين، مما كان في حوزة الجيشين العراقي

¹⁸ يحسن الرجوع خاصة إلى كتاب محمد عزة دروزة: حول الحركة العربية الحديثة، الجزء الثاني، صيدا- بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر،

والأردني. وهكذا ضمت إلى إسرائيل مساحات شاسعة من أراضي المثلث العربي ومن أراضي النقب الجنوبي من وادي عربة حتى البحر الأحمر.

وقد وصف الجنرال غلوب هذه الكارثة الجديدة وكيف تمت بالتقسيم¹⁹.

أما العراق فقد بقي خارج اللعبة لعدم وجود حدود مشتركة بينه وبين الدولة اليهودية.

وجدير بالذكر أن اتفاقيات الهدنة هذه- على خطورتها- قد خلت من أية إشارة إلى الجوانب السياسية للقضية، ولا سيما عودة اللاجئين إلى ديارهم.

تلك هي أهم الأمثلة على مسؤولية الدول العربية عن "حرب" عام 1948 ونتائجها. وهي تكفي للدلالة على ضعف الموقف العربي وتخاذله، وعلى التزام الدول العربية أولاً وأخراً بعدم تخطيها حدود مشروع التقسيم خلال تلك "الحرب". ولعل هذا الالتزام، مهما تكن دوافعه ومبرراته، هو المحور الذي دارت عليه الأحداث فيما بعد وتلونت بلونه. لقد كان كافياً للحكم على المعركة مسبقاً بالفشل. وقد استمسكت به بريطانيا والصهيونية وأمريكا لتجعله متكاملاً لخطوات أوسع، أدت في النهاية إلى خلق دولة إسرائيل في إطار يجاوز كثيراً إطار مشروع التقسيم.

نظرة إجمالية

هكذا نرى في خاتمة المطاف كيف تضافرت جملة من العوامل في "حرب" عام 1948، وكيف أدت مجتمعة إلى النهاية الأليمة التي انتهت إليها.

وإذا كانت هذه العوامل التي رأيناها - بريطانيا وأمريكا والصهيونية وهيئة الأمم والعرب أنفسهم- تؤلف وحدة كثيرة أو كثرة واحدة، فإن من الصحيح كذلك إن كلا منها كان شأنه الخاص وأثره المساعد. ومع ذلك نستطيع أن نقول إنها جميعها تسقي من نبع واحد وتصدر عن ورد مشترك، هو الاستعمار جملة. ولا يشذ عن ذلك حتى العامل المتصل بدور العرب أنفسهم، كما رأينا. فهو أيضاً ينهل من ورد الاستعمار الذي كان مخيماً على البلدان العربية آنذاك، متحكماً في قدرها ومصيرها.

ولا نغلو إذا قلنا إنه لو قبض لواحد من هذه العوامل أن يكون في منجاة من أثر الاستعمار، لتغير وجه المعركة ولاختلفت نتائجها. وبوجه خاص لو استطاع العرب أن يوجهوا المعركة بقواهم الذاتية وجهودهم المستقلة، لكان في مقدورهم أن يؤثروا في العوامل الأخرى إلى حد بعيد وأن يشكلوها تشكيلاً جديداً لصالحهم، وأن يفعلوا فيها بدلاً من أن ينفعلوا بها.

¹⁹ نقلاً من كتاب شفيق الرشيدات: فلسطين، مرجع سابق، ص 277-283.

ولعل هذه النتيجة هي الدرس الأساسي الذي استخلصه العرب من نكبة عام 1948، وهي التي حملتهم على أن يعيدوا النظر في حياتهم السياسية وفي بنيتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية.

ذلك أن الانتقال من موقف التبعية للاستعمار إلى موقف التحرر منه والاستقلال عنه، بدا للعرب مطلباً لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق تغيير جذري في بنية الحياة العربية، لا يقتصر على جوانبها السياسية بل يشمل سائر الميادين المؤثرة في هذه الجوانب السياسية والمتأثرة بها، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية. ولقد أدركوا في ظلمة النكبة أن سعيهم الجديد ينبغي ألا يستهدف مطلباً أقل من جعل الحياة العربية في مستوى العصر وفي شأو التقدم الذي تتحداهم قواه لدى الصهيونية والاستعمار.